



Skepticism between Al-Ghazali and Descartes: A Comparative Analytical Study

Ahjeelah Alsayd Alatrash *

Department of Philosophy, Faculty of Arts, Bani Waleed University, Libya

الشك بين الغزالي وديكارت (دراسة تحليلية مقارنة)

احجيله الصيد الأطرش سالم *
قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة بني وليد، ليبيا

*Corresponding author: J24179151@gmail.com

Received: February 26, 2026

Accepted: April 16, 2026

Published: April 28, 2026

Abstract:

This comparative analytical study examines the concept of doubt as a methodological approach in the philosophies of Al-Ghazali and Rene Descartes. The research clarifies that doubt for both philosophers is a constructive stage aimed at reaching intellectual and scientific truths, fundamentally differing from destructive skepticism. By employing historical and descriptive-analytical methods, the study explores the origins of doubt and the cognitive issues that triggered it in their respective eras. The analysis details their systematic skepticism toward sensory perceptions, rational axioms, and conscious life experiences. The findings highlight significant parallels in their pursuit of certain knowledge and liberation from inherited prejudices. Notably, the study concludes that Al-Ghazali's methodological doubt preceded Descartes by six centuries, suggesting a potential influence of Islamic thought on modern Western philosophy, evidenced by the presence of Al-Ghazali's works in Descartes' library.

Keywords: Methodological Doubt, Al-Ghazali, Descartes, Epistemology, Certainty, Comparative Philosophy.

المخلص

تناول هذه الدراسة التحليلية المقارنة مفهوم الشك كمنهج في فلسفة كل من الغزالي ورينيه ديكارت. وتوضح الدراسة أن الشك لدى كلا الفيلسوفين يمثل مرحلة بناءة تهدف للوصول إلى الحقائق الفكرية والعلمية، مما يجعله يختلف جذرياً عن الشك الارتياحي الهدام. وباستخدام المنهجين التاريخي والوصفي التحليلي، تتبع الدراسة بدايات الشك والقضايا المعرفية التي أثارته في عصر كل منهما.

ويفصل التحليل موقفهما من الشك المنهجي تجاه المدركات الحسية، والأوليات العقلية، وتجارب الحياة الشعورية. وتبرز النتائج وجود توافق كبير في سعيهما نحو المعرفة اليقينية والتحرر من الأحكام المسبقة. وتخلص الدراسة بشكل لافت إلى أن أصالة الشك المنهجي تعود للغزالي الذي سبق ديكارت بسنة قرون، مما يشير إلى تأثير محتمل للفكر الإسلامي في الفلسفة الغربية الحديثة، وهو ما يعززه وجود مؤلفات الغزالي في مكتبة ديكارت الخاصة.

الكلمات المفتاحية: الشك المنهجي، الغزالي، ديكارت، نظرية المعرفة، اليقين، الفلسفة المقارنة.

المقدمة:

تُعد إشكالية الشك واحدة من أكثر القضايا الفلسفية عمقاً وتأثيراً في تاريخ الفكر الإنساني؛ إذ مثلت المنعطف الجوهري الذي انتقل بالعقل من ضيق "التقليد" إلى رحاب "الاستدلال" والبرهان. وجاء اختيار هذه الدراسة لتسلط الضوء على "إشكالية الشك" في فلسفة قطبين من أقطاب الفكر العالمي: حجة الإسلام أبي حامد الغزالي في المشرق، والفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت في المغرب. وينطلق هذا الاختيار من اعتبار الشك مرحلة تأسيسية ضرورية، لا غنى عنها للعقل الإنساني في محاولاته الجادة للتفكير في مشكلاته الوجودية والمعرفية بأسلوب علمي ومنضبط، بغية الوصول إلى حقائق فكرية وعلمية تقوم على اليقين لا على الظن.

وحيث إن هذه الدراسة تتناول الشك عند الغزالي وديكارت "كمنهج فلسفي" وليس كحالة ذهنية عابرة، فإن الأمر يقتضي تتبعاً دقيقاً للمفاهيم والقضايا الجوهرية التي كانت محط اهتمامهما، واستقصاء البواعث التي دفعت كلاً منهما لخوض غمار هذه التجربة المريرة والملمهة في آن واحد. إن الشك الذي خاضه الغزالي وديكارت يختلف اختلافاً جذرياً عن "الشك الارتياحي" (Skepticism) الهدام الذي يتخذ من الريبة غاية في حد ذاتها؛ فبينما يغلق الشك الارتياحي على صاحبه دائرة الانغلاق المعرفي والعدمية، يظهر "الشك المنهجي" عندهما كأداة تطهيرية للعقل، وسيلة معنية بالوصول إلى حقيقة راسخة يجد لها العقل أساساً منطقياً لا يقبل الزعزعة.

إن الفارق الجوهري يكمن في أن الشك الفلسفي المنهجي هو "جسر" نحو اليقين، بينما الشك الارتياحي هو "سجن" يظل صاحبه حبيساً للأفكار المترددة والقضايا المعلقة، عاجزاً عن الاعتراف بإمكانية الخروج من تلك المتاهة الفكرية.

وبناءً على ذلك، تسعى الباحثة من خلال تسليط الضوء على هذه الإشكالية إلى رصد وتحليل أوجه الاتفاق والاختلاف في "الآليات المنهجية" التي اتبعتها كل منهما، وفحص السياقات المعرفية التي شكلت قناعاتهما، وذلك عبر مقارنة نقدية للأفكار والقضايا التي نالت نصيب الأسد من اهتمامهما، بدءاً من الشك في المحسوسات وصولاً إلى الثقة بالعقل أو كشف "النور الإلهي".

يهدف هذا البحث إلى تحديد موضوع الدراسة وحصره في نظرة كل من الفيلسوفين لهذه الإشكالية كمنهج إرادي واع يقود إلى اليقين في إطارها الفكري والعلمي. ولتحقيق هذه الغاية، تنطلق الباحثة في تناولها للقضايا من تساؤلات محورية تشكل العمود الفقري للدراسة، ومن أبرزها: ما هي الدوافع الذاتية والموضوعية التي جعلت من الشك ضرورة منهجية عند الغزالي وديكارت؟ وإلى أي مدى تتطابق المسارات التي سلكها في نقد المعرفة الحسية والعقلية؟ وهل كان اليقين الذي وصل إليه الغزالي من طبيعة مختلفة عن يقين ديكارت؟ إن محاولة الإجابة على هذه التساؤلات هي ما سيمهد الطريق لتحقيق أهداف الدراسة وبلورة نتائجها النهائية.

تساؤلات الدراسة:

1. ما هو الشك وأسبابه وآثاره لدى الغزالي وديكارت؟
2. كيف بدأ الشك عند كل من الغزالي وديكارت، وما هي القضايا والمشكلات العلمية والفكرية التي كانت تثير الشك في تفكيرهما؟
3. ما الفرق بين مجالات الشك وأدواته ومفاهيمه عند الغزالي وديكارت؟

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في النقاط الآتية:

1. إثراء الدراسات التي تناولت الشك بين الغزالي وديكارت، لاسيما وأن هناك عدة دراسات تطرقت لهذا الموضوع .
2. الإفادة من هذه الدراسة في المستقبل وإثراء فكرة أن الشك طريق إلى معرفة الحقيقة في كل ما يعترض الإنسان من قضايا .
3. معرفة مصادر الشك ومكوناته بين الغزالي وديكارت وكيفية توظيفهما له كمنهج موصل إلى الحقيقة .

أهداف الدراسة:

1. التعرف على مفهوم الشك، وكيف بدأ عند كل من الغزالي وديكارت .
2. معرفة مصادر الشك بين كل من الغزالي وديكارت .
3. محاولة تحديد القضايا والمعطيات العلمية التي أثارت شكوكًا عند كل من الغزالي وديكارت .

منهج الدراسة :

استخدام المنهج التاريخي؛ وذلك لتتبع مراحل تطور الأفكار الفلسفية لهذين المفكرين، وضرورة إنجاز الدراسة في سياقها التاريخي. كما أن الدراسة تستلزم الاستعانة بالمنهج الوصفي التحليلي المقارن بحكم أنها تتناول إشكالية الشك عند كل من الغزالي وديكارت من خلال مقارنة منهج كل منهما؛ فطبيعة الدراسة تتطلب العمل بهذه المناهج في محاولة للوصول لإنجازها بما يتفق وتحقيق الأهداف المرجوة .

فصول الدراسة:

تنظم هذه الدراسة، بعون الله وتوفيقه، ضمن إطار منهجي وعلمي متكامل يهدف إلى الإحاطة بجوانب الموضوع كافة، وقد قُسمت على النحو الآتي:

المقدمة والإطار العام للدراسة:

تتناول المقدمة تحديد إشكالية البحث، وأهميته العلمية، والأهداف المتوخى تحقيقها، مع استعراض تساؤلات الدراسة والمنهجية المتبعة (المنهج المقارن والتحليلي) التي تضبط مسار المعالجة الفلسفية. **الفصل الأول: الشك (الماهية، السياق، والجذور التاريخية):**

يُعنى هذا الفصل بتأصيل مفهوم الشك من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية، وتتبع تطوره التاريخي كظاهرة معرفية. كما يسلط الضوء على تنوع مفاهيم الشك واختلاف مشاربه، مع ربط هذا التنوع بالسياقات المعرفية والفلسفية التي شكلت إطار العصور التي ظهر فيها، وصولاً إلى وضعه في سياقه الإبستمولوجي الدقيق.

الفصل الثاني: الشك عند الغزالي وديكارت (المجالات والأنماط):

يُخصص هذا الفصل للمقارنة التحليلية بين تجربة الغزالي وديكارت، من خلال استعراض موضوعات الشك لديهما ومجالاته المختلفة، والتي شملت:

- الشك في المعارف الحسية: وفحص مدى موثوقية الحواس كمصدر للعلم.

- الشك في المعارف العقلية: ومناقشة حدود الاستدلال المنطقي والبداهة الرياضية.
- الشك في الحياة الشعورية والمعرفية: وتتبع أثر الشك في تكوين القناعات النفسية واليقين الفكري.

الخاتمة والنتائج:

تتوج الدراسة بخاتمة مركزة تستعرض أهم الاستنتاجات التي تم التوصل إليها، مع التأكيد على نقاط التلاقي والافتراق الجوهرية بين الغزالي وديكارت. كما تتضمن الخاتمة عرضاً لمجموعة من النتائج العلمية التي تبرز أصالة المنهج الشكي لدى كل منهما وأثره في الفكر الفلسفي اللاحق.

الفصل الأول: الشك (تعريفاً، اصطلاحاً، وتاريخاً)

1- الشك لغة واصطلاحاً.

أولاً: الشك لغة

لفظ "الشك" مشتق من المادة اللغوية "شكَّ، يشكُّ، شكًّا"، ويُجمع على "شكوك". وتورد معاجم اللغة معانٍ متعددة لمادة (الشين والكاف)، منها:

- الشك بمعنى التداخل: يشير ابن فارس (د.ت) إلى أن الشين والكاف أصل واحد مشتق بعضه من بعض، وهو يدل على التداخل، ومن ذلك قولهم: شككته بالرماح؛ وذلك إذا طعنته فدخل السنان جسمه (ابن فارس، ج 3، ص 173). ومنه قول عنتره بن شداد:

فشككتُ بالرمح الأصمَّ ثيابهُ *** ليس الكريمُ على القنا بمحرم

- الشك بمعنى نقيض اليقين: يُستخدم الشك مقابلاً لليقين؛ فيقول المرء: "شككت في الأمر وتشككت فيه" أي ذهب يقيني. وإنما سمي بذلك لأن الشاك يطرح الأمرين في شك واحد، وهو لا يتيقن واحداً منهما دون الآخر، فمن ذلك استحقاق الشك بين شيئين؛ كقولك: شككت بين ورقتين إذا غرزت العود فيهما فجمعتهما.

وهكذا انحدر الشك في معناه الأصلي إلى هذا التصور السلبي الذي يهدم المعرفة هدماً ويشكك في الحقائق من ناحية وجودها ومن ناحية يقينها. لقد ارتبط الشك الفلسفي أساساً بنظرية المعرفة، حيث استُخدم للتعبير عن اختبار قدرة العقل البشري على الوصول إلى معرفة يقينية، وفحص الحقيقة الموضوعية كما تتصل بمبحث الوجود كوجود العالم وطبيعته. والشاك يتوقف عن إصدار حكم ما استناداً إلى أن كل قضية تقبل السلب والإيجاب بقوة متعادلة (زيادة، د.ت).

ويستعمل الشك في العلوم المختلفة على نطاق واسع؛ ففي العلوم الطبيعية يأتي بمعنى أن كل معرفة تعتبر موضع اختبار وفحص وتحليل من أجل توافر الأسس والأسباب لقبولها دون أدنى ريب (ميخائيل، 1975). أما في علم النفس، فيكون الشك صحيحاً ومهماً لحياة الإنسان إذا كان لتمحيص وعدم قبول كل ما يصادفه من أفكار وآراء دون تمحيص (صليبا، 1981)، بينما ينقلب شكاً مرضياً عندما ينتقل إلى المبالغة في القلق والتوهم والظن.

ثانياً: الشك اصطلاحاً

توجد تعريفات عديدة لمصطلح الشك، ولكن في مجموعها تدور حول المعنى اللغوي للمصطلح، وإن كان المفهوم يختلف من ناحية المجال العلمي والمعرفي الذي يُستخدم فيه. وما يعيننا هنا تعريفه من الناحيتين المعرفية والفلسفية، حيث يكون للشك تعلق كبير بهما من ناحية مناقضته لهما. فقد عرفه الجرجاني (د.ت) بأنه: "التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك"

(الجرجاني، ص 141). وذكر الجرجاني أيضاً في تعريفه أن الشك "ما استوى طرفاه، وهو الوقوف بين الشئيين لا يميل القلب إلى أحدهما" (الجرجاني، ص 141). أما الجويني، فقد ذكر في تعريف الشك فحوى التعريفين السابقين وزاد عليهما بقوله: الشك ما استوى فيه اعتقادان أو لم يستويا، ولكن لم ينته أحدهما إلى درجة النقاء التي يبني عليها العاقل الأمور المعتمدة (السبكي، 1964). وبناءً على هذه التعريفات، يمكننا ترتيب المستوى المعرفي على النحو التالي:

1. **الجهل**: وهو عدم الإدراك للمعلوم أصلاً.
2. **الشك**: وهو التردد بين النقيضين بلا مرجح.
3. **الظن**: وهو التردد بين النقيضين مع وجود مرجح لا يصل لحد اليقين.
4. **اليقين**: وهو الاعتقاد الجازم في الحقيقة.

وبهذا نختم الكلام عن التعريف اللغوي لمصطلح الشك، والذي تبين لنا أنه يحتمل معاني كثيرة ومتنوعة، ولكنها جميعاً تدور حول معاني الغموض والالتباس وعدم وضوح المعرفة، بالإضافة للأوصاف والأعراض التي تعتري من يشك في أمرها. وضمن هذا السياق، يكون الشك مضطرباً في نفسه وفي قلبه، وهذا النوع من التعريفات فيه وصف دقيق لحاله، حيث إنه ذو أثر عكسي وصل إلى الشك من خلال المستوى المعرفي ومن خلال القناعة القلبية؛ فيقدر قوة القناعة وتوفر المعرفة تكون الحالة النفسية للباحث قوية متيقنة، وإن ضعفت القناعة وقلت المعرفة جاءت الحالة النفسية ضعيفة ومضطربة. ونذكر "الحالة النفسية" لأن الشك -على الأقل لدى الغزالي- مثل حالة نفسية ووجودية.

وبعد ذكر معاني الشك في اللغة، تأتي الإشارة إلى أن الظن زائد في معناه عن الشك؛ حيث يستوي عند الشاك الطرفان بلا مرجح، أما الظن فإن فيه ترجيحاً لأحد الطرفين مع إمكان وجود الطرف الآخر (الجرجاني، د.ت). وقد استعمله القرآن الكريم بمعنى اليقين كما في قوله سبحانه: {وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا} [البقرة: 48]. ويقول الراغب الأصفهاني (1980) أن "الظن" اسم لما يحصل عن أمانة، متى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جداً لم يتجاوز حد الوهم. وبالنسبة للجهل، فهو في مرتبة أقل من الشك، والشك أخص منه؛ لأن الجهل قد يكون عدم العلم بالنقيض رأساً، أو بالعلم به مع عدم إدراك الراجح، فكل شك جهل لا العكس (التهانوي، 1984). وقد يأتي الشك بمعنى التخمين؛ يقال: "خمن الشيء" إذا قال فيه بالحدس أو الوهم، والعامّة تستعمل "خمن" بمعنى ظن (الفيروز آبادي، 1975). وأخيراً يرد الشك بمعنى الخرص؛ فيقال: "خرص فيه" أي حدس وقال بالظن، ومنه قوله سبحانه وتعالى: {فُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} [الذاريات: 10]، قال ابن عباس رضي الله عنه: أي "لعن المرتابون" (ابن كثير، 1992).

ويلاحظ على هذه التعريفات اتفاقها جميعاً على أن موضوع المعرفة أو الحقيقة مبهم أو غائب أو متردد فيه، ولم يصل فيه الباحث إلى اليقين أو العلم، بل لم يتجاوز حتى إلى الظن الراجح بعد. والمعنى السابق هو ما تعرضت له التعريفات التي تصف الجهل أو انعدام المعرفة في الموضوع نفسه (كالتفرقة بين نقيض اليقين والوهم والحسبان والتخمين والخرص). وفي هذه الحالة تكون الحقيقة ذاتها غائبة عند الشاك، أو تكون المعرفة معدومة أو ناقصة نقصاً جلياً، وهذا القدر من السلبية يكون في مرتبة قريبة من الجهل.

وقد يأتي الشك بمعنى الالتباس، فيقال: "شك في الأمر" إذا التبس موضوعه لعدم وضوحه. ومن زاوية أخرى، يرتبط الشك بمعنى الاضطراب في القلب والنفس؛ وذلك باعتبار ما يعتري القلب من التردد المصاحب للشك. ويعبر الشك أيضاً عن معنى الحسبان كما في قوله تعالى: {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ

أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ} [البقرة: 273]؛ فهؤلاء الفقراء يظن البعض أنهم أغنياء لما يبدو على ظاهرهم من التعفف والحال أنهم فقراء في الحقيقة.

وعلى ضوء ما سبق، يتضح لنا أن هناك نوعين من الشك: أحدهما إيجابي يتوصل به إلى اليقين ويكون مؤقتاً في الأفكار والافتراضات حتى تتضح صحتها، وشك آخر سلبي يهدم المعرفة ويحصل من الإنسان حين يكون عاجزاً عن إدراك الحقيقة، وهذا ما سيتضح بيانه في المباحث القادمة.

2- الغزالي وديكارت: النشاط الفكري والفلسفي أولاً: الغزالي

هو "محمد بن أحمد" المكنى بـ "أبي حامد الغزالي"، والمُلقب بـ "حجة الإسلام"؛ تقديراً لمكانته العلمية الرفيعة ودفاعه عن حياض الفكر الإسلامي. أبصر النور في مدينة "طوس" بإقليم "خراسان" (450هـ / 1058م)، وهي بيئة علمية خصبة في بلاد فارس الشرقية آنذاك. نشأ الغزالي في كنف والد اتسم بالورع والتقوى، حيث كان محباً لمجالسة الفقهاء والنهل من معينهم رغم اشتغاله بمهنة بسيطة وهي غزل الصوف. وحين أحس الوالد بدنو أجله، وصى بصغيريه (محمد وأحمد) إلى صديق له من المتصوفة، ليتعهدهما بالرعاية والتوجيه (الغزالي، 1986).

نشأ الغزالي في تلك البيئة الصوفية التي غرست في نفسه بذور التقوى والسمو الروحي، ومع نضوب الموارد المادية الموروثة، التحق الصبيان بإحدى "المدارس النظامية" التي كانت مراكز إشعاع علمي توفر لطلابها سبل العيش والتحصيل المعرفي. هناك، انكبت همة الغزالي على دراسة الفقه والأصول، وتعمق في فهم المنظومات القيمية والآداب الشرعية (الحلو، 1995).

إن حياة الغزالي، الممتدة عبر سياقات سياسية وفكرية مضطربة، لم تكن مجرد سيرة ذاتية بقدر ما كانت ملحمة من التفكير المستمر والعمل الدؤوب؛ إذ ارتبطت تحولاته الفكرية وتنقلاته المكانية - كما يروي في كتابه الفذ "المنقذ من الضلال" - بالأزمات الكبرى في عصره. ويرى بعض المحللين أن خروجه من بغداد لم يكن انقطاعاً تعديلاً محضاً، بل ارتبط بجفاء سياسي مع الخليفة "المستظهر" أو بتداعيات سجالاته الفكرية العنيفة مع "الباطنية"، مما جعل تجربته الفلسفية مزيجاً فريداً من المعاناة الوجودية والبحث عن اليقين المطلق (الحلو، 1995).

ثانياً: ديكارت

على الطرف الآخر من التاريخ، يبرز رينيه ديكارت (1596م) كفيلسوف أحدث قطيعة معرفية وتحولاً جذرياً في مسار الفكر الغربي؛ إذ نُصب بحق مؤسساً للفلسفة الحديثة. لقد طمح ديكارت إلى تشييد صرح فلسفي جديد كلياً، متجاوزاً بذلك الإرث الأرسطي الذي هيمن لقرون طويلة. استلهم ديكارت منهجه من صرامة الرياضيات وبقينها، فكانت إسهاماته في الهندسة التحليلية وحساب التفاضل والتكامل مرتكزاً لرؤيته الفلسفية الشاملة (كرم، 1969).

عاش ديكارت صراعاً فكرياً منذ مقتبل شبابه؛ إذ أدرك أن المناهج الفلسفية التقليدية التي تلقاها في مدرسة "لافلش" اليسوعية لم تقدر العقل إلا إلى مزيد من التخبط والحيرة، مما ولد لديه قناعة بضرورة هدم "المبنى المعرفي القديم" لإعادة بنائه على أسس يقينية لا تقبل الشك. ومن رحم هذه المعاناة، وُلد كتابه "مقال في المنهج"، الذي أرسى فيه قواعد "الشك المنهجي" بوصفه أداة فعالة لتطهير العقل من الأوهام والترسبات المعرفية السابقة (أمين، 1976).

تتجسد عبقرية ديكارت في مبداه الشهير: "أنا أفكر إذن أنا موجود" (Cogito, ergo sum)، حيث جعل من فعل التفكير ذاته البرهان الأول والوحيد على حقيقة الوجود. كما رسخ في فلسفته مفهوم "الثنائية" (Dualism) عبر التمييز الحاد بين الذات والجوهر الروحي وبين العالم المادي. لقد نقل ديكارت مرجعية الحقيقة من "السلطة الخارجية" (سواء كانت كتباً قديمة أو مؤسسات دينية) إلى

"سلطة العقل" وحده، معتبراً أن وضوح الفكرة وتميزها هما المعيار الأسمى للصواب والخطأ (أمين، 1976). بذلك، لم يكن ديكارت مجرد فيلسوف، بل كان ثائراً معرفياً أعاد للإنسان ثقته في قدراته العقلية المستقلة.

3- كيف بدأ الشك عند الغزالي وديكارت؟

أولاً: بداية شك الغزالي.

يصف حجة الإسلام في كتابه "المنقذ من الضلال" كيف أصابه (مرض) الشك نتيجة المتناقضات الموجودة في عصره؛ إذ رأى تضارب المذاهب والاعتقادات الموروثة القائمة على التقليد الأعمى. فرأى أنه لا بد من الشك في هذه الموروثات حتى يستقل بفكره ويكون رأيه الخاص؛ إذ لا خلاص إلا بالاستقلال المعرفي. وقد عبر عن ذلك بقوله إن الشكوك هي الموصلة للحقائق: "فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بات في العمى والضلال" (الحلو، 1995).

ثانياً: بداية شك ديكارت.

رغم التعليم الجيد الذي تلقاه ديكارت، إلا أنه أمضى حياته في غربة هذه الثقافة ونقدها. اتخذ ديكارت من "الشك الحازم" منهجاً، فبدأ بالشك في كل المعارف التي تلقاها منذ الطفولة عن طريق التربية والتقليد، والتي أصبحت تُعد يقيناً دون فحص. لقد تجرأ ديكارت على نقد هذه اليقينيّات لبناء صرح علمي ثابت ومستقر يتوافق مع الاكتشافات الجديدة في عصره (ديكارت، 1974). ومن هنا بدأ بالتمييز بين الأفكار "الواضحة والتمايزة" وبين الأفكار المضطربة التي تقبل الشك (أمين، 1976).

ثالثاً: الجذور التاريخية للشك وتطوره في عصري الغزالي وديكارت.

يشارك الغزالي وديكارت في انطلاقهما من "الإرادة الحرة" لمعرفة الحقيقة؛ حيث سلكا طريقاً يقودهما مبدئياً إلى الشك المطلق، لينتهي بالتغلب عليه والوصول إلى اليقين. يبني كل منهما شكه على مراتب متعددة، ومع ذلك، تظل الفروق بين عصريهما جوهرية؛ فعصر الغزالي ازدحم بالمشكلات الدينية والكلامية القائمة على التقليد، مما جعل مهمته "إنقاذ العقل" من هذا التقليد. أما عصر ديكارت، فقد اتسم بالثورة العلمية في الطبيعيات والرياضيات، مما فرض عليه تحدي المذاهب القديمة وبناء منهج يتسق مع لغة العلم الجديدة (رسل، 1977). ورغم هذا الاختلاف الزمني والمكاني، فقد اشتركا في "الروح الفلسفية" التي جعلت من الشك جسراً آمناً نحو اليقين.

الفصل الثاني: الشك بين الغزالي وديكارت (مجالاته وأنواعه)

1- الشك المنهجي.

دفع الشك الفلسفي كلاً من الغزالي وديكارت إلى السعي نحو الاستقلال العقلي، والاعتماد على محاولة إيجاد حقيقة واحدة ثابتة، والبدء بطريقة جادة للوصول إليها، مقتنعين اقتناعاً راسخاً بإمكانية التوصل إلى معرفة هذه الحقيقة. وقد اتبع الغزالي وديكارت أسلوب الشك المنهجي، وهو ليس شكاً مطلقاً بل منهج يفترضه صاحبه بإرادته؛ وذلك لاختبار معلوماته وتطهير عقله من الأخطاء، وبذلك يمثل وسيلة لا غاية، وهو خطوة للوصول إلى اليقين ليس إلا.

هكذا يشير الغزالي إلى شكه كمرحلة طلب فيها علماً بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم على ما هي عليه من يقين دون سواه. أما ديكارت فيرى أن الأداة الحقيقية لكل علم، وكذلك المنهج، يتمثلان في البحث عن إجابة للسؤال التالي: ما هي المعرفة؟ وما هو المدى الذي تمتد إليه؟ (العوا وفينياس، 1981).

ويعتقد ديكارت أن البحث في المنهج هو أهم المشكلات وأولها بالعناية في مهام الفيلسوف، ولم يرضَ ديكارت عن منهج الفلسفة الكلاسيكية الذي كان سائداً في عصره، والذي تلقاه أيام طلبه للعلم في مدرسة "لافلش". وقد لاحظ ديكارت اختلاف وجهات النظر وفوضى الآراء سواء في الفلسفة أو في العلوم أو في الدين؛ فرأى أن المنهج عبارة عن قواعد مؤكدة بسيطة، إذا راعاها الإنسان مراعاة دقيقة كان في مأمن من الانزلاق وراء التصديق الهش، وما كان ليحسب صواباً ما هو خطأ، ولاستطاع الحصول على المعرفة دون أن يستنفد قواه في جهود ضائعة؛ فالمنهج شك مؤقت للوصول إلى اليقين (بلدي، 1978؛ غالب، 1985).

إن منهج الشك الديكارتي يشبه منهج الشك عند الإمام الغزالي، كما يفهم من قول الأخير في كونه متعطشاً إلى إدراك حقائق الأمور بصورة واضحة لا لبس فيها، وأن الشك كان ديدنه من أول أمره وريعان عمره غريزة وفطرة من الله. وهذا نفس ما ذهب إليه الباحثون في مذهب ديكارت وفلسفته العقلية، إلا أنهم فرقوا بين المنهجين بقولهم: إنه بالرغم من هذا التشابه الظاهري في استخدام منهج الشك عند كل من الفيلسوفين، إلا أن هناك اختلافاً في القضايا والسياق والغاية من الأفكار المطروحة (ديكارت، 1964).

لقد كان الغزالي معنياً بالحقيقة الدينية إلى حد كبير، ولذلك ناقش ماهية الإيمان وطبيعته لزيادة اليقين، ومناقشة أهم الأفكار والاتجاهات التي تطرح قضاياها. أما ديكارت فقد طرح الشك في صيغته المعرفية، والمعرفة تحتاج إلى منهج وإعادة تأسيس كما فعل في كتابه "مقال في المنهج". وحاول الغزالي من قبل التأكد من طريق الإيمان والإخلاص في التوجه لله، وبهذا فقد أطلق على كتابه "المنفذ من الضلال".

2- الشك في الحواس.

تتقدم المعارف الحسية في أولى مراتب المعارف التي يحصل عليها الإنسان بوصفها علماً مباشراً بالأشياء، ولكن هذه المباشرة وسهولة الحصول على هذه المعارف توضحان خداعها عند النظرة القريبة؛ وذلك لأن التجربة تبين أن المعرفة الحسية خاضعة لأوهام وخيالات (إبراهيم، 1986). فالغزالي، بعد أن رفض المعلومات التي حصل عليها عن طريق الأفكار والتقاليد، اتجه إلى المحسوسات ينشد فيها اليقين، لكنه شك في المعرفة الحسية لأن الحواس عرضة للخطأ كما هو حادث في خداع البصر. ويضرب مثلاً على ذلك بأننا نرى الكواكب صغيرة جداً في مقدار الأشياء الدنيا، ولكن الأدلة الفلكية الهندسية تثبت عكس ما نرى، وأن الكواكب منها ما هو أكبر من الأرض؛ فمن أين تأتي الثقة بالمحسوسات؟ (الغزالي، د.ت).

ويقدم الغزالي في كتابه "المنفذ من الضلال" أدلة على أن الحواس تخدعنا، وأن المعارف الحسية بناءً على ذلك عارية من اليقين، ولهذا فلا يمكن لها أن تُعد علماً حقيقياً؛ يقول الغزالي: "من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك وتحكم بنفي الحركة؟ ثم بالتجربة ومع المشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك بغتة، بل بالتدرج ذرة ذرة حتى لم تكن حالته حالة وقوف. هذا المثال وأضرابه من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه الظاهرية، فقلت في ذلك: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً، ويكذبها حاكم العقل ويخونها تكديباً لا سبيل إلى مدافعتة" (الغزالي، د.ت).

وديكارت بدوره استبعد شهادة الحواس لأنها تخدعنا أحياناً، ومن الفطنة ألا نأمن تماماً لمن خدعنا مرة؛ ورأى أن اختلاف الناس في أفكارهم واتجاهاتهم ليس إلا نتيجة لخداع الحواس في كثير من الأحيان (أمين، 1976). يقول ديكارت: "كل ما تلقيت حتى اليوم وأمنت بأنه أصدق الأشياء وأوثقها قد اكتسبته من الحواس أو بواسطة الحواس، غير أنني جربت هذه الحواس في بعض الأحيان فوجدتها خداعة، ومن الحكمة أن لا نطمئن كل الاطمئنان إلى من خدعونا ولو مرة واحدة" (ديكارت، 1974).

3- الشك العقلي.

بعد أن استبان لكل من الغزالي وديكارت ما تنطوي عليه المعارف الحسية من مواطن الخداع والالتباس، لم يقف طموحهما المعرفي عند هذا الحد، بل قررا نقل المعركة المنهجية إلى معقل "الجوانب العقلية" ذاتها. فلم تعد المسألة تقتصر على رفض المعطيات الخارجية، بل امتدت لتشمل فحص الأدوات التي ندرك بها تلك المعطيات. ومن هنا انصبّت تساؤلاتهما حول مدى وثوقية "المعارف العقلية الأولية" وقدرتها على الصمود أمام النقد الجذري (صليبا، 1986).

يقصد الغزالي هنا الشك في "العقل الاستدلالي" القائم على آليات الاستنباط والمنطق الصوري، والتشكك في إمكانية صدق الأحكام الضرورية الصادرة عنه. إن الغزالي يضعنا أمام مفارقة إبستمولوجية؛ فبعدما كف عن الثقة بالمحسوسات، لجأ إلى العقلية بوصفها الملاذ الأخير لليقين، خاصة "الأوليات الرياضية" والمنطقية (مثل: العشرة أكبر من الثلاثة، والنفي والإثبات لا يجتمعان). ومع ذلك، لم يمنح الغزالي العقل صكاً بالثقة المطلقة، بل أخضعه لمساءلة عميقة (الغزالي، 1986). ويصور الغزالي هذا الصراع الفكري في حوارية فلسفية مذهلة على لسان "المحسوسات" وهي تخاطب العقل قائلة: "بِمَ تأمن أن تكون ثقّتك بالعقلية كتثقتك بالمحسوسات؟ وقد كنت واثقاً بي فجاؤ حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر في تصديقي". يطرح الغزالي هنا فرضية "الحاكم الأعلى"؛ فمن يدري لعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر، إذا تجلّى كذب العقل في أحكامه، تماماً كما كذب العقل الحواس عند تجليه. هذا الانفتاح المعرفي على احتمال وجود قوة مدركة تتجاوز العقل يجعل الشك يتسع لمدى لا نهائي، ويضع العقل البشري في مأزق القصور الذاتي عن بلوغ اليقين المطلق بمفرده (الغزالي، د.ت).

من زاوية متصلة، يرى ديكارت أن العقل، رغم كونه أعدل الأشياء قسمة بين الناس، إلا أنه بحكم تكوينه الإنساني يظل عرضة للخطأ والزلل. لاحظ ديكارت أن الاستدلالات العقلية تتباين بتباين الأشخاص، حتى في أدق العلوم كالرياضيات؛ حيث يقع البعض في أخطاء منطقية (Paralogisms) وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً (ديكارت، 1974). لذا، فإن ديكارت لا يشك في "قدرة" العقل من حيث المبدأ، بل يشك في "الاستخدام" البشري له، مؤكداً أن العقل يحتاج إلى "منهج" يضمن استقامته ويقبه الوقوع في التناقض.

4- الشك في الحياة الشعورية.

عندما تنهوى أركان اليقين الحسي والعقلي، يواجه الإنسان حالة من "الخلاء المعرفي" أو التفسخ في وحدة صورة العالم، حيث تتحول الخبرات المباشرة إلى أجزاء متفرقة مشكوك في أصلها. في هذه اللحظة، يتجاوز الشك كونه مجرد تمرين ذهني ليصبح "تجربة شعورية" وجودية تهز كيان الباحث وتدفعه نحو الشعور بالعدم، حيث لا تصمد الأشياء أمام طوفان الشكوك الجارف (أمين ومحمود، 1970).

لقد امتد شك الغزالي ليشمل "اليقظة" ذاتها؛ فبعدما أثبت قصور الحس والعقل، تساءل: هل الحياة التي نعيشها حقيقة أم محض خيال؟ واستند في تأييد هذا الشك الوجودي إلى "أحوال المنام"؛ فالنائم يرى أحداثاً ويتخيل أحوالاً لا يشك في ثبوتها وواقعيتها ما دام نائماً، فإذا استيقظ أدرك أنها كانت أضغاث أحلام. ومن هنا، يطرح الغزالي سؤاله المرير: ما الذي يضمن لنا أن حالتنا في اليقظة ليست سوى "حلم طويل" بالنسبة لحالة أخرى أسمى منها؟ (الغزالي، د.ت). وقد عزز الغزالي هذا المنزع الإشرافي بالاستشهاد بالقول المأثور: "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا"، مما يشير إلى أن اليقين الحقيقي قد لا يتحقق إلا بانكشاف "النور الإلهي" الذي يقذفه الله في الصدر، وهو ما يتجاوز حدود العقل والشعور المعتاد (العوا وفينياس، 1981).

أما عند ديكارت، فإن الشك في الحياة الشعورية قد تبلور في فرضية "الحلم" وفرضية "الشيطان الماكر (Evil Genius)"؛ حيث افترض ديكارت وجود قوة قادرة ومخادعة تبذل كل جهدها لتضليله، حتى في الأمور التي تبدو بديهية. هذا المستوى من الشك يهدف إلى عزل الذات تماماً عن كل موروث شعوري أو حسي، حتى لا يبقى في النهاية إلا حقيقة واحدة لا يمكن لهذا الشيطان الماكر أن يخدعه فيها، وهي حقيقة أنه "يشك"، وبما أنه يشك فهو "يفكر"، وبما أنه يفكر فهو "موجود". وبذلك، كان الشك الشعوري عند كلا الفيلسوفين هو "المخاض الأخير" الذي سبقت ولادة اليقين الجديد.

الخاتمة والنتائج

جاءت أهمية هذه الدراسة من تناول موضوع الشك بين حجة الإسلام أبي حامد الغزالي والفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت، مع الأخذ بعين الاعتبار التوافق الملحوظ بين أفكار كلا الفيلسوفين، بل وحتى في بعض جوانب سيرتيهما الذاتية، ناهيك عن التجربة الخصبة لتفكيرهما القائم على البحث والمراجعة؛ فقد عاش كل منهما في عصر انحلت فيه عرى وحدة الفكر إلى مجموعة من الآراء المتناقضة التي تدعي كل منها لنفسها معرفة الحقيقة، دون أن تستطيع في النهاية البرهنة على صحة هذا الادعاء.

وفيما يخص التوافق الفكري بينهما، تشير الدراسة إلى احتمالية عملية التأثير والتأثر؛ وبالنظر إلى تعاقبهما التاريخي، نجد أن الغزالي قد سبق ديكارت بستة قرون تقريباً، مما يعزز الاستنتاج بأن أصالة الشك المنهجي كانت واضحة عند الغزالي، وأن ديكارت قد بنى أفكاره المنهجية على فلسفة الغزالي. وفي هذا الصدد، نوه الباحث محمود حمدي زقزوق إلى أن الباحثين عثروا في مكتبة ديكارت الخاصة على نسخة مترجمة من كتاب "المنقذ من الضلال"، مما يدعم فرضية اطلاع ديكارت على أفكار الغزالي وتأثره بها.

نتائج الدراسة:

- من خلال العرض والتحليل السابق، يمكن استخلاص النتائج التالية:
- **الاتفاق المنهجي:** ثمة اتفاق بين الغزالي وديكارت على إمكانية التحرر من الأحكام المسبقة، والخيبالات، والأوهام، للوصول إلى معرفة يقينية -على الأقل في مجالات معينة- منبثقة عن العقل وحده، وذلك عبر منهج فلسفي يتفقان في أسسه وإن اختلفا في طريقة عرضه.
 - **تهافت المعرفة الحسية عند الغزالي:** جاء الشك في الحواس عند الغزالي بعد فشل المعرفة الحسية بوصفها طريقاً منشوداً للوصول إلى اليقين؛ ولم يكن هذا الموقف مصادفة، بل نتاج بحث أثبت له أن المحسوسات مليئة بالمغالطات، مما دفعه لرفضها.
 - **خداع الحواس عند ديكارت:** استبعد ديكارت الحواس ومدركاتها المتغيرة التي تخدعنا في حياتنا اليومية، وكانت حجته أن ما ننتلقاه ونعتقد بصدقه عن طريق الحواس كثيراً ما نكتشف الأخطاء التي تكتنفه، ومن الحكمة عدم الاطمئنان لمن خدعنا ولو لمرة واحدة.
 - **الشك في المعقولات عند الغزالي:** انتقل الغزالي إلى اختبار العقل في مرحلة تالية؛ فبعد بطلان الثقة بالمحسوسات، لم يبق إلا العقليات الأولية (كقولنا: العشرة أكبر من الثلاثة)، ومع ذلك أخضع الغزالي العقل لنفس معايير النقد والتمحيص.
 - **البداهة العقلية عند ديكارت:** انتقل ديكارت من الشك في الحواس والحياة الشعورية إلى فحص البداهة العقلية التي تستمد منها الاستدلالات قوتها، مثل العمليات الحسابية البسيطة، لكونها واضحة ومتميزة، ولا يمكن أن تكون موضوع شبهة.

- **الشك في الحياة الشعورية:** امتد الشك عند الغزالي من عالم الحس إلى الجانب النفسي (أحوال المنام)، ومنهما إلى المتخيلات والتقاليد الفكرية الموروثة. وهو ما أكد عليه ديكرت أيضاً من أن الشك لا يتوقف طالما كانت المعرفة في طور التطور، متبعاً في ذلك درجات الشك ذاتها التي قررها الغزالي من قبل. والله ولي التوفيق.

Compliance with ethical standards

Disclosure of conflict of interest

The authors declare that they have no conflict of interest.

المراجع

- [1] أبو حامد الغزالي. (1986). *القسطاس المستقيم* (تحقيق رياض مصطفى العبد الله). بيروت، لبنان: دار الحكمة.
- [2] أبو حامد الغزالي. (د.ت) *تهافت الفلاسفة* (تحقيق سليمان). القاهرة، مصر: دار المعارف.
- [3] أبو حامد الغزالي. (د.ت) *المنقذ من الضلال*. بيروت، لبنان: مكتبة الشعب.
- [4] أحمد أمين، وزكي نجيب محمود. (1970). *قصة الفلسفة* (ط7). القاهرة، مصر: لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- [5] ابن فارس، أبو الحسين أحمد. (د.ت) *معجم مقاييس اللغة* (ج3، تحقيق عبد السلام هارون). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- [6] ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. (1992). *تفسير القرآن العظيم* (ج3). القاهرة، مصر: دار الحديث.
- [7] برتراند رسل. (1977). *تاريخ الفلسفة الغربية: الفلسفة الحديثة* (الكتاب الثالث، ترجمة محمد فتحي الشنيطي). القاهرة، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- [8] الجرجاني، علي بن محمد. (د.ت) *التعريفات* (تحقيق إبراهيم الإبياري). القاهرة، مصر: دار الكتاب العربي.
- [9] جميل صليبا. (1981). *المعجم الفلسفي* (ج1). بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.
- [10] جميل صليبا. (1986). *تاريخ الفلسفة العربية*. بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني.
- [11] الراغب الأصفهاني. (1980). *المفردات في غريب القرآن*. القاهرة، مصر: دار المعارف.
- [12] رينيه ديكرت. (1956). *التأملات في الفلسفة الأولى* (ط2، ترجمة عثمان أمين). القاهرة، مصر: مكتبة القاهرة الحديثة.
- [13] رينيه ديكرت. (1964). *مقال في المنهج* (ترجمة محمود الخضيرى). القاهرة، مصر: دار الهلال.
- [14] زكريا إبراهيم. (1986). *مشكلة الفلسفة* (سلسلة مشكلات فلسفية). القاهرة، مصر: مكتبة مصر.
- [15] السبكي، تاج الدين. (1964). *طبقات الشافعية الكبرى* (ج1، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح عبد العليم). القاهرة، مصر: مطبعة عيسى الحلبي.
- [16] عادل العواء، وغسان فينياس. (1981). *المدخل إلى الفلسفة*. دمشق، سوريا: جامعة دمشق.
- [17] عثمان أمين. (1976). *ديكرت* (ط7). القاهرة، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية.
- [18] عبده الحلو. (1995). *كتاب الوافي في تاريخ الفلسفة العربية*. بيروت، لبنان: دار الفكر.

- [19] الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب. (1975). *القاموس المحيط*. بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.
- [20] محمد علي التهانوي. (1984). *كشاف اصطلاحات الفنون* (ج2). القاهرة، مصر: دار المعارف.
- [21] مصطفى غالب. (1985). *ديكارت*. القاهرة، مصر: دار الهلال.
- [22] معن زيادة. (د.ت). *الموسوعة الفلسفية* (ج1). بيروت، لبنان: دار الطليعة.
- [23] نجيب بلدي. (1978). *ديكارت* (ط2). القاهرة، مصر: دار المعارف.
- [24] يوسف كرم. (1969). *تاريخ الفلسفة الحديثة* (ط5). القاهرة، مصر: دار المعارف.
- [25] يوسف ميخائيل. (1975). *سيكولوجية الشك*. القاهرة، مصر: دار غريب للطباعة والنشر.

Disclaimer/Publisher's Note: The statements, opinions, and data contained in all publications are solely those of the individual author(s) and contributor(s) and not of **CJHES** and/or the editor(s). **CJHES** and/or the editor(s) disclaim responsibility for any injury to people or property resulting from any ideas, methods, instructions, or products referred to in the content.